غيرها . وأما فى زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد فى عهده ، ولكن الفتح يستدعى التمكين والتوطيد أولا . ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبى عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة ، حتى لو كان كل شىء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش فى الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى . وأما زمن على وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية فى مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التى شادها بفضل ما تولى منها فى الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة فى غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف ، وفرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هى ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة . ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً فى قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة فى الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح . وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة . وقد يتغير حال الجزيرة فى المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة فى سبيل الحياة . ومهما يبلغ من غناها فى المستقبل فانها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على أن كلامنا على الماضى الذى لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد فى الدنيا لا على المستقبل الذى هو غيب .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

. . . مشى «عبدالله» حذراً ، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش ، فيقطعوا عليه سبيله ، فلم ير أحداً . وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا فى مجالسهم كعادتهم فى كل مساء فاطمأن وسار قدما ، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون . واتسع الوادى أمامه وانفرج ، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ؛ ونظر . . فراقه منظر الغروب . على هذه السفوح والذرى ، وأحس بجلال الموقف ، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق . وهذه الصفرة التى تعم كل شىء ، فنسى غايته ووقف ينظر . . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادى ، وتبدو الكعبة قائمة فى وسطها ، والأصنام التى تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود . . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا فى الغار . وذهب يتحسس لهما خبر قريش . ويعلم علمهما . ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق (١) . . فخاف أن يكون قد أصابهما شر ، فاغمض عينيه عن هذه المشاهد ، ومضى فى طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت فى المجد والظفر ، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هى مخومة فى صندوق من الصخر . على السهول والجنان والمدائن التى أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودها اليها وانصرفت عن الراية التى دفعها اليها محمد ، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب

(١) انظر كتابى « أبو بكر الصديق » صفحة ٩٠

فتركزها فى دمشق والأسكندرية ، وعلى إيوان كسرى . وفضلت عليها رايتها التى لم تتعود الخفق فى سماء المعارك الكبرى ، ولا ألفت الاهتزاز على أسوار المدن المفترحة . . لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها . ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر ، ويعطيها العقل المبدع ، والقانون العادل ، والعبقرية والخلود ، فأبت ، وعكفت على أصنامها وتماثيلها . . فما أعجب عقل قريش !

ونظر إلى مكة مرة ثانية ، فاذا الظلام قد لفها بردائه ، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور تخالط نفسه سرور مبهم ، وشعر بزوال هذا الخطر القرشى ، واستروح رائحة الظفر ، فامتلأ قلبه أملا ، وجعل يجيل بصره فى الأفق الواسع ، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترفرف على هام القصور البلق فى الشام ، والصروح البيض فى المدائن . . . فمضى يتسلق الصخور إلى الغار ، وهو يقفز قفزاً ، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير !

* * *

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى . . . ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التى تلتهب فى أيام الصيف التهاباً ، وهذه الرمال التى تتسلسل إلى غير ماحد ، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة . لقد كان ذلك ، والتاريخ جنين فى بطن العقل البشرى لم يولد بعد ، وكان وهو طفل لايعى ، وكان والتاريخ صبى يميز ويدرك ، فرآه فسجله فى دفتره . . .

رأى وادى النيل ، وحوض الرافدين ، يمشيان إلى الخراب ، قد نضبت فيهما الحياة ، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة ، من وسط الرمال ، فتقذف إلى مصر بـ (مينا) ليكون أول فرعون فيها ، وتلقى ببنى كلدة إلى العراق ، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر ، يفتحون حقائب أدمغتهم ، فيخرجون منها الحضارة الأولى ، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن ، وتدور الأفلاك ، فتطحن الناس ، وتحطم الحضارة وتطفىء الشعلة ، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد ، وتسمع الصحراء فتهيأ وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط « مجموعة بشرية » عرفها التاريخ القديم ، ثم تلقى بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم ، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة فى العالم ، وتنشىء فى كل موضع « مستعمرة فينيقية » هى فى الحقيقة مدرسة عالمية ، كان من أمهر من تخرج فيها « اليونان »

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى . . . ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى !

* * *

فكر « عبد الله » فى هذا وهو يتسلق الصخور ، إلى الغار ، وكان لطول ماسمع من حديث الاسلام شديد الرغبة فى توحيد العرب ، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن « فى الشام والعراق » من الحكم الأجنبى . وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب ، أثمرتها فى رأس « عبد الله » الدعوة التى استجاب لها ، وآمن بها ، واستسلم عبد الله إلى أفكاره ، وأطلق لها العنان ، وشمل العالم كله بنظرة واحدة ، فرآه ينتظر شعباً جديداً ظاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة ، حراً لم تذله تلك الأنظمة الجائرة ، أبيا لم يألف طغيان الملوك ، وجبروت الأباطرة ، ليختم صفحة الماضى السوداء ، ويفتح فى التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرب ، ولم يعد صالحا ، ولا بد من شعب قوى ماهر ، يهدم هذه الأطلال البالية ، ثم ينشىء بناء جديدا .

إنه ليس فى العالم إلا ثلاث كتل كبيرة . . . كتلتان تتصارعان صراع الديكة ، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى ، فسالت دماء الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لتغدو قرمزية حمراء ، يمتازون بها من « سواد الشعب » وطاحت جماجم الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون ، لأنهم سيبنون منها برجا ، يترفعون به عن غمار الشعب

هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية ، وهناك كتلة أخرى فى زاوية الكون نائمة على ضفاف « الكنج » ووراء « هماليا » لا يدرى بها أحد . . .

أمم تشقى ليسعد أفراد . شعوب تضنى ليحيا رجال . مدن تحرق لتشعل منها « سيجارة » إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد ! فمن هو الذى ينقذ العقل البشرى من قيود الجهل والاستبداد ! من هو الذى يمحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة ؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة ؟ من الذى يمهد السبيل للمستقبل المنتظر ، لعصر الراديو والطيارة ؟ لعصر العلم والفضيلة ؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة ؟ لعصر السوبرمان . . .

لا أحد !

كل شىء هادىء فى العالم !

إن القافلة تمشى ببطء فى عرض البادية ، قد خرس الحادى ، ومات الدليل ، إنها تمشى نحو الموت !

إن السفينة تتخبط فى لجة اليم . تميل وتضطرب ، لم يعد لها أمل ، قد هبت العاصفة وطغى الموج ، وغرق الربان !

يا من يهدى القافلة الضالة ؟

يا من يخلص السفينة الحيرى ؟

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحمي العقل المهان ؟ يامن ينقذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من مجيب ، كل شيء هادىء في العالم !

* * *

بلغ السيل الزبى ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فلفت الناس فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنائس ، فأموا بيوت الله ، ونفضوا أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت في وجوههم كل الأبواب ، ولكن باباً واحدا لا يزال مفتوحا فوق رءوسهم ، هو باب السماء .

وسمعوا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين ، علموا أنه سيبعث نبي جديد ، يطهر الأرض ، وينشر العدل ، فخرجوا فرحين مستبشرين ، قد احيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار في سهول العراق الجميلة . . . فتشوا عنه على جبال لبنان الشجراء ، وحدائق الشام الغناء ، فتشوا عنه في المدن الكبرى ، عله يظهر إلى جانب القصور في القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجبروت البشرى ، فيهزها ويزلزلها ، فتشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج في السهول ولا في الجبال ولا في المدن الكبرى - ولكنه سيخرج من حيث انبثقت الحياة ، من حيث بزغ فجرها من حيث خرجت الحضارات الأولى . . . من الجزيرة

تلك هي أم العالم فليلجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

* * *

فتشوا عن النبي المنتظر في كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ، وديس الحق . . . فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنائس . فسمعوا فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة . . .

« يا شعوب العالم » !

« استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التي ستغمر العالم - وتغسله من أدران الماضي - لقد نشأت من غار عال منقطع . في قمة جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثمار والرياحين - نحو أرض المدنيات . . . لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخي : إن ركاب النبي المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب - إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة »

فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح ، وعاشت بحبه ، وسألت :

— إلى أين يلمح ؟ إلى أين يلمح ؟

— لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التي جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئا ، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه ، فهي تريد أن ترد النبي فتقتله أو تسجنه ، فهي تبعث رسلها ، يفتشون عنه في أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ، ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفضاً ، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالي المكشوف الذي يطل منه سيد العالم

— أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبي المرتقب ؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للمجرمين ، يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون في كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبي !

* * *

وانتبه ، عبد الله ، فاذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من ذهوله ، وتساق الصخر مسرعا نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ، التي لم تفهم قريش معناها - وحسبتها سفرا من مكة إلى المدينة ، لقد علم أنها انتقال من الماضي الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق المنير . . . فليقفز إلى الغار قفزا . . .

* * *

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : . .

يا من يعرفون قيمة الفكر البشرى ، ويستمتعون بثمراته . . .

يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة . . .

لاتنسوا أبداً أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة الحيرى ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار (حراء) إذ بزغت منه أنوار الديانة التي هذبت العقل الانساني ، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ بدأت منه الموجة التي نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، وقفت على الماضي السخيف ، وحملت إلى العالم أسمى المبادىء وأعلاها ، حين حملت إليه تعاليم حراء

إن هذه الغيران كعبة في التاريخ ، لاينبغ عقل ولا يمشي في طريق التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها . . .

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو الغار . . .

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامي . . . ماخرج العالم من الهوة ، التي دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجبروت الملوك المستبدين . . . ولا كانت حضارة القرن العشرين !

. . . هذا هو معنى الهجرة ، التي نحتفل اليوم بذكراها ، لحق على كل متمدن أن يشاركنا في هذا الاحتفال !

عين التنه — سوريا

علي الطنطاوي